المحاضرة الرابعة

آليات التواصل المرضي

إنّ حاجة الانسان للتواصل مع الآخرين ضرورية عبر مختلف سنوات حياته كونها تلبي الكثير من احتياجاته المختلفة، لكنّ الفشل في تحقيق هذا التواصل في أي مرحلة من المراحل يكون في الكثير من الحالات له انعكاساته الغير مرغوب فيها، والتي قد تكون شديدة التأثير خاصة على مسار النمو النفسي للفرد.

1- مفهوم التواصل:

يعرّف **كولي Cooley** التواصل على أنّه: "الميكانيزم الذي تتواجد بواسطته العلاقات الإنسانية وتتطور، ويتضمن جميع رموز الفكر ووسائل إرسالها عن طريق مكان، وبتدعيم زمان. وأنّه يتضمن تعبيرات الوجه والاتجاهات والحركات ونبرات الصوت والكلمات". ويرى **مصطفى حدّية** أنّ التواصل" ظاهرة مركبة وضرورية تشير إلى مجموعة أصناف التواصل الإنساني، فهو يتغيّر تبعا للآليات المستخدمة لبلورته وتبعا للمواضيع المتتالية".

ومن هنا يمكن الاستنتاج أنّ التواصل المرضي داخل الأسرة هو عبارة عن نمط من التفاعل المختل الذي يتميز بالغموض والتناقض والاضطراب في نقل الرسائل بين أفراد الأسرة، مما يجعلهم عرضة للضغوط والاضطرابات النفسية خاصة في سن مبكّرة. إذن يتحول دور الرسالة من وسيلة يستفيد منها الفرد في ميادين مختلفة من حياته إلى وسيلة للأذى والسيطرة.

2- نمط الاتصال داخل النسق الأسري ودوره في ظهور التواصل المرضي:

إنّ نمط الاتصال ونوعيته داخل الأسرة له دور كبير في توازنها وسوائها، وكلّما كان الاتصال واضحا ومحددا ويتم حسب الأدوار المفترضة وفي ظل قواعد أسرية مرنة كان سواء الأسرة. والعكس صحيح، فإذا كان الاتصال مقصورا بسبب نقص الوضوح مثل عضو الأسرة الذي يعتقد أنّ الأسرة تقلل من قيمته، ولا يستطيع أن يحدد مَن الذي مِن أفراد الأسرة يقلل من قيمته؟ وكيف يحدث ذلك؟ ويكون الاتصال غامضا عندما لا يحرص الأفراد على توضيح أنفسهم جيدا للآخرين، علما أنّ هذا الغموض الذي يلجأ إليه أحيانا أفراد الأسرة على نحو شعوري أو لا شعوري يحقق أغراضا لصاحبه حيث لا يريد أن يكون واضحا وأن يكشف للناس ما في داخله. وأحيانا ما يكون الاتصال مسببا لسوء الأداء الوظيفي لأنه غير متسق أو غير مناسب سواء كان الاتصال لفظيا وعن طريق الإشارات أو العبارات حيث تنقل الإشارات مضمونا يتناقض

مع المضمون اللفظي، أو تنقل العبارات اللفظية مضمونا يتعارض مع التعبيرات الانفعالية وهذا الاتصال غير المتسق هو الأساس في معظم مواقف السخرية أو التهكّم. وعندما يحدث التناقض أو عدم الاتساق في الرسالة –حتى ولو كان على نحو عرضي- فإنّ المستجيب أو المستقبل للرسالة لا يعرف كيف يستجيب، وهذا هو الموقف الذي يؤدي إلى الرابطة المزدوجة التي تحدّث عنها **باتسون** وزملاؤه.

وقد تحدّثت **فرجينيا ساتر Satir V** عن هذا الاتصال المتناقض وكيف يؤدي إلى اضطراب الطفل، وحددت التي ينبغي أن تتوافر حتى يمثل اضطراب الاتصال ضغطا على الطفل يوقعه بموقف أشبه بالرابطة المزدوجة، أي موقف يمكن أن يؤدي إلى المرض. وهذه الشروط كالاتي:

أ-أن يتعرض الطفل لمستوى مزدوج من الرسائل على نحو متكرر ولفترة طويلة من الزمن.

ب-أنّ هذه التأثيرات ينبغي أن تأتي من الأشخاص ذوي الأهمية السيكولوجية الكبيرة بالنسبة للطفل(أم، أب مثلا).

أن يتعوّد الطفل منذ ألاّ يسأل أحد الكبار من حوله: هل تقصد هذا أم ذاك؟ بل يجب عليه أن يقبل الرسائل المتناقضة من والديه بكل ما تتضمنه من استحالة أو صعوبة. ويجب عليه أن يضطلع بالمهمة البائسة في تحويلها إلى سلوك ذي اتجاه واحد.

3-أنواع الاتصال الخاطئ داخل الأسرة:

يرى **ميرغاترويد** و **وولف** Woolfe & Murgatroyed أنّ هناك نوعان من الاتصال الخاطئ في الأسرة يسميان النوع الأوّل "**أنا أولا** Me first" و النوع الثاني "**عدم الاستماع** Unhearing".

3-1: النوع الأوّل "أنا أوّلا": فيشير ببساطة إلى تفضيل عضو الأسرة لصالحه الشخصي على حساب صالح الأعضاء الآخرين، فالأسرة تَجَمُع يرتبط بروابط الدم أوّلا والمصالح ثانيا، وهي وحدة نفسية واجتماعية ولها أهداف مشتركة وتخوض تجارب مشتركة. وذلك لا يمنع من التباين بين أعضاء الأسرة والخصوصية التي يرى كل عضو أنه ينبغي أن يتمتع بها، والاحترام الذي يجب أن تناله مطالبه وحاجاته الشخصية، وأحيانا ما يحدث صراعا أو تعارضا بين "الجماعي Collective" والشخصي "Personal" داخل الأسرة، مما ينعكس على أنماط الاتصال فيها. وفي الأسرة السوية يمكن للأعضاء مواجهته(الصراع) باستبصار، ولكن بعض الأسر ليس لديها القدرة على أن تفعل ذلك وخاصة إذا حاول أحد أعضاء الأسرة على نحو فج أن يحقق لنفسه مصالح على حساب الأعضاء الآخرين، أو أن يحقق لنفسه الأمن على حساب تهديد أمن الآخرين وإفزاعهم.

3-2: النوع الثاني "عدم الاستماع": ويمكن أن يسمى عدم الاتصال فهو إمّا أن يقابل أحد الأفراد الأسرة بتجاهل، أو أن يقابل بسوء فهم وسوء الفهم يحدث بدرجة أكبر من التكرار. وفي هذا النمط من الاتصال الخاطئ يفشل عضو الأسرة في تبليغ أعضاء الأسرة الآخرين وخاصة الوالدين أفكاره ومشاعره وحاجاته ومطالبه، وفي هذا المجال يبدو أن الأسرة لا تريد أن تتواصل معه وتستمع إليه وتتجاوب مع توجيهاته، مثل الطالب الذي يريد أن يتخصص في دراسة معينة ولكن الوالدان يريدان له أن يتخصص في دراسة أخرى ومن هنا لا يكونان على استعداد للتفاهم معه، أو حتى مناقشته فيما يريد أن يفعل وهما يتجاهلان أو يسيئان فهمه في هذا الموقف فقط، ولكنه عندما يتحدث معهم في أي موضوع آخر فإنّه يجد منهما تجاوبا كاملا.

4- الأنساق المغلقة كنموذج للتواصل المرضي:

ومن نماذج التواصل المرضي أيضا ما نجده داخل الأسر المنغلقة والتي تتميز بالجمود وعدم المرونة، وتظهر هذه الخاصة الأخيرة في علاقات أفراد الأسرة واتصالاتهم. ففي هذه الأسرة لا يسمح فيها إلاّ بقدر ضئيل من التغيّر، وتتسم علاقاتهم معا بالجمود، وتظل العلاقات كما هي لا تتغيّر وحتى التغيرات الضرورية التي ينبغي أن تترتب على تغير أوضاع أفراد الأسرة وأدوارهم لا يحدث فيها تغيّر، فالطفل الصغير يكبر

ويصبح مراهقا ويصبح بعد ذلك راشدا ومع ذلك فقد تظل معاملته من قبل الوالدين كما هي. وتظهر سمة الجمود أكثر ما تظهر في علاقات الأم بأبنائها أو بأحدهم، حيث تظل تعامله معاملة الأبن الصغير حتى يصل إلى مرحلة المراهقة ولا تسمح هذه الأم لطفلها بالانفصال الشخصي عنها وتنمو بينهما العلاقة التكافلية التي تكمن كثيرا وراء حالات إصابة الأبناء بالفصام عندما تتهدد هذه العلاقة أو تنقطع. كما تتميز الاتصالات داخل الأسرة المنغلقة بأنها جامدة وميكانيكية ومقررة سلفا، كما يميل أفراد الأسرة إلى الحديث نيابة عن بعضهم البعض، وكثيرا ما يقوم أحد أفراد الأسرة بإنهاء الحديث الذي بدأه عضو آخر أو تكميله، وتكون الردود على الأسئلة مقتضبة ومحددة وتفتقر إلى العفوية والتلقائية. ومن علامات الجمود أيضا في النسق الأسري المغلق، المحدودية الشديدة في السلوك والنمطية في الاستجابة، فأمام أفراد الأسرة المنغلقة مجموعة صغيرة وليس متعددة أو متنوعة من السلوك يستجيبون بها في المواقف المختلفة، ولذا تعتبر محدودية السلوك ونمطيته من أهم ملامح الأسرة المنغلقة. والمحدودية هنا لا تعني قلة البدائل الفعلية أمام أفراد الأسرة، بل هي كثيرة ومتاحة ولكن أفراد الأسرة لا يرونها أو لا يريدون رؤيتها، فهم ينظرون إليها كأساليب سلوكية مستحيلة بالنسبة لهم، وكما لو كانوا مجبرين على أن يسلكوا على النحو التقليدي الذي ألفوه. **(كفافي2009،ص ص 89-90)**

وبالتالي فإن الأسرة التي لديها اتصالات داخلية ضعيفة بين أفرادها مثل الأسرة المفككة، قد تتكسر وتصبح شظايا متفرقة تحت وطأة الضغوط نظرا لأنّ أفرادها منفصلين بالفعل عن بعضهم البعض بواسطة حدودها الداخلية السميكة. إنّ مثل هذه الأسر الأخيرة قد لا تتعلّم أبدا أن تحل مشكلاتها بصورة جماعية أو أن يتعاملوا مع بعضهم البعض بتفهم وتعاطف، ولأنّ كل فرد منفصل عن الآخر فإنه يجب أن يتكيف ويتواءم مع مشاكله بطريقته المنعزلة، وغالبا ما لا ينجح في ذلك. وتظل الأسرة ذات الاتصالات المفككة معرضة لضغوط مختلفة ولا تجد حلولا مناسبة لذلك، بل قد تجد بدلا من ذلك بعض الروح العدائية بين أفرادها، بفعل الاحباطات المستمرة وغياب التعاون والتفهم. وبما أنّ هذه الأسر المفككة تفتقر إلى البنائية، فإنّها تصبح غير قادرة على أداء وظائفها بصورة ملائمة ومنسجمة، على عكس أفراد التواصل الصحي فلهم شخصياتهم المستقلة وكياناتهم المتميزة.

5- انعكاسات التواصل المرضي على الأسرة:

أشارت ليدز Lidz 1960 إلى بعض العمليات المرضية التي تحدث في الأسرة مثل:

1-5: الانقسامات في الأسرة: وتعني الانقسامات في الأسرة وجود تكتلات أو مجموعات داخلية، فالأب قد يأخذ إلى جانبه بعض الأبناء وكذلك قد تفعل الأم، أو أن ينجح أحد الوالدين في الاستحواذ على عاطفة واهتمام الأبناء جميعا في صراعه مع الوالد الأخر، وتحدث عملية الصراع في معظمها على المستوى اللاشعوري وإن كانت تبدو علنية وشعورية في بعض المواقف.

2-5: العزلة الاجتماعية والثقافية للأسرة: حيث إذا وُسِمت الأسرة بسمعة سلبية أو عرف عنها بعض العادات والممارسات غير الطيبة فإنّ الأسر الأخرى تبتعد عنها، مما يجعل أفرادها يشعرون بالعزلة. وبالتالي فإنّ الشعور بالعزلة يعمل على تفاقم ونمو العمليات المرضية، ويزيد من احتمال تنشئة الأسرة لأطفال مضطربين.

3-5: الفشل في تعليم الأبناء وتسهيل تحررهم من الأسرة: فبعض الأسر تتشبث بأبنائها وتطيل فترة اعتمادهم عليها، ويعود ذلك إلى عدم نضج الوالدين ويعمل هذا الموقف على تثبيت وتدعيم السمات الطفلية عند الأبناء، وبذلك فإنّ حاجة الآباء إلى ابتزاز أبنائهم عاطفيا تكون على حساب تحررهم من الروابط الأسرية، وعلى حساب استقلاليتهم في العمل والتفكير وعلى حساب نضج شخصيتهم.

4-5: إعاقة التنميط الجنسي والهوية الجنسية: ومن الأساليب الخاطئة في التنشئة والتي تعود إلى باثولوجية الآباء أنفسهم في معظم الحالات الفشل في تعليم الأبناء والممارسات وأساليب السلوك المناسبة لكل جنسكما حدتها الثقافة. وهي ما تسمى بعملية "التنميط الجنسي" أو "الهوية الجنسية". وبالتالي فإنّ عدم تعلّم الطفل للسلوك المناسب لجنسه يسبب له كثيرا من المتاعب، ويمكن أن يعيق توافقه السليم في البيئة خاصة وأنّ معظم المجتمعات لا تتهاون إزاء الخلط في الأدوار الجنسية.